الموسيقى

جبران خليل جبران

جلست بقرب من أحبتها نفسي أسمع حديثها. أصغيت ولم أنبس ببنت شفة ، فشعرتُ أن في صوتها قوة اهتز لها قلبي اهتزازات كهربائية فصلت ذاتي عن ذاتي ، فطارت نفسي سابحة في فضاء لا حد له ولا مدى ، ترى الكون حلماً والجسد سجناً ضيقاً.

سحر عجيب مازج صوت حبيبتي وفعل بمشاعري ما فعل وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني عن الكلام.

هي الموسيقى أيها الناس ، سمعتها إذ تنهدت حبيبتي بُعيد بعض الكلمات وابتسمت في بعضها . سمعتها لما حكت تارة بألفاظ متقطعة وآونة بجمل متواصلة وأخرى بكلمات أبقت نصفها بين شفتيها .

تأثيرات قلب حبيبتي ، رأيتها بعين سمعي فشغلتني عن جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هي صوت النفس .

بلى ، فالموسيقى هي لغة النفوس ، والألحان نسيمات لطيفة تهز أوتار العواطف . هي أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبه الذاكرة فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثرت فيها بماضٍ عبر .

هي نغمات رقيقة تستحضر ، على صفحات المخيلة ، ذكرى ساعات الأسى والحزن إذا كانت محزنة ، أو ذكرى أويقات الصفاء والأفراح إذا كانت مفرحة .

هى مجموع أصوات محزنة تسمعها فتستوقفك و تملأ أضلعك لوعة و تمثل لك الشقاء كالأشباح .

هى تأليف أنغام مفرحة ، تعيها فتأخذ بمجامع قلبك فيرقص بين أضلعك فرحاً و تيهاً .

هى رنة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموجات الأثير ، فقد تخرج من عينيك دمعة محرقة أثارتها لوعة نأى حبيب أو آلام كلوم خرقها ناب الدهر . و ربما خرجت من بين شفتيك ابتسامة كانت و الحق عنوان السعادة و الرخاء .

هى جسم من الحشاشة ، له روح من النفس و عقل من القلب .

***

وجد الإنسان فأوحيت إليه الموسيقى من العلاء لغة ، ليست كاللغات ، تحكى ما يكنه القلب للقلب ، فهى حديث القلوب . و هى كالحب عمّ تأثيرها الناس ، فترنم بها البرابرة فى الصحراء ، و هزت أعطاف الملوك فى الصروح . مزجتها الثكلى مع نوحها ، فكانت ندباً يفتت قلب الجماد . و بثها الجذلان مع أفراحه فكانت إنشاداً يطرب مغلوب الأرزاء ، فقد حاكت الشمس ، إذ أحيت بأشعتها جميع زهور الحقل .

الموسيقى كالمصباح ، تطرد ظلمة النفس ، و تنير القلب ، فتظهر أعماقه . و الألحان فى قضائى أشباح الذات الحقيقية أو أخيلة المشاعر الحية . و النفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود و فواعله تنعكس عليها رسوم تلك الأشباح و صور تلك الأخيلة .

النفس زهرة لينة في مهب ريح التقادير ، نسيمات الصباح الأولى تهزها وقطرات الندى تلوي عنقها . كذا تغريدة عصفور تنبه الإنسان من غفلته ، فيصغي ويشعر ، و يمجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق ، وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته ، فيسأل ذاته ، وما يحف به ، عما أسرّه لحن ذلك الطائر الحقير فحرّك أوتار عواطفه وأوحى إليه معاني ما حوتها كتب الأولى تقدموه . يسأل مستفهماً عما إذا كان العصفور يناجى زهور الحقل أم يحاكى أغصان الأشجار أم يقلد خرير مجارى المياه أم ينادم الطبيعة بأسرها ، و لكنه لا يستطيع إلى الحصول على الجواب سبيلاً .

الإنسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق أطراف الأغصان، ولا الجداول على الحصباء، ولا الأمواج إذ تأتي الشاطئ ببطء وهدوء. ولا يفقه ما يحكيه المطر إذ يتساقط منهملاً على أوراق الأشجار، أو عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور نافذته، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل، ولكنه يشعر أن قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات، فيهتز لها تارةً بعوامل الطرب، ويتنهَّد طورًا بفواعل الأسى والكآبة. أصوات تناجيه بلغة خفيَّة، وضعتْها الحكمة قبل كيانه، فتحدثت نفسُه والطبيعة مرَّات كثيرة، وهو واقف معقود اللسان حائرًا، وربما ناب عن لفظه الدمع، والدمع أفصح مترجم.

***

تِ معى ، يا صاحِ ، إلى مسرح الذكرى لنرى منزلة الموسيقى عند أمم طوتها الأيام ، و تعالَ نتأمل تأثيرها فى كل دور من أدوار ابن آدم .

عبدها الكلدانيون و المصريون كإله عظيم يُسجد له و يمجّد . و اعتقد الفرس و الهنود بكونها روح الله بين البشر . و قال شاعر فارسى ما معناه : " إن الموسيقى كانت حورية فى سماء الآلهة تعشقت آدمياً و هبطت نحوه من العلو فغضب الآلهة إذ علموا و بعثوا وراءها ريحاً شديدة نثرتها فى الجو و بعثرتها فى زوايا الدنيا ، و لم تمت نفسها قط بل هى حية تقطن آذان البشر " .

و قال حكيم هندى : " إن عذوبة الألحان توطد آمالى بوجود أبدية جميلة " .

و الموسيقى عند اليونان و الرومان كانت إلهاً مقتدراً ، بنوا له هياكل عظيمة ما برحت تحدثنا بعظمتهم ، و مذابح فخيمة ، قدموا عليها أجمل قرابينهم و أعطر بخورهم . إلهاً دعوه أبولون فمثلوه و جميع الكمالات تجعله منتصباً ، كالغصن على مجارى المياه ، يحمل القيثارة فى يسراه ، و يمينه على الأوتار ، رأسه مرفوعة يمثل العظمة ، و عيناه ناظرتان إلى البعيد كأنه يرى أعماق الأشياء .

و قالوا إن رنات أوتار أبولون صدى صوت الطبيعة . رنات شجية ينقلها عن تغريد الطيور و خرير المياه و تنهدات النسيم و حفيف أغصان الأشجار .

و جاء فى أساطيرهم أن رنات أوتار أورفيوس الموسيقى حرّكت قلب الحيوان فاتبعته الضوارى ، و النبات ، فمدّت نحوه الأزاهر أعناقها و مالت إليه الأغصان ، و الجماد ، فتحرك و تفتت .

و قالوا فقد أورفيوس زوجته فبكاها و رثاها نادباً حتى ملأت نغمة لوعته البرية ، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنت قلوب الآلهة ففتحت له أبواب الأبدية كى يلتقى حبيبته فى عالم الأرواح .

و قالوا قتلت بنات الأحراج أورفيوس و رمين برأسه و قيثارته إلى البحر فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الأغانى .

و قالوا إن الأمواج التى حملت رأس أورفيوس و قيثارته ما برحت مذ ذاك الحين تصوغ من أصواتها ندباً مؤثراً و أنغاماً محزنة ، تملأ الأثير فيسمعها الملاحون .

هذا كلام بعد أن قضى عز تلك الأمة و مضى ، دعوناه خرافات مصدرها الوهم و أحلاماً ابتدعتها التصورات ، غير أنه قول دلّ على أن تأثير الموسيقى فى صدور اليونان كان عميقاً و عظيماً فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد ، فما ضرنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغة شعرية مصدرها رقة العواطف و محبة الجمال و هذا فى عرف الشعراء الشعر ؟

نقلت إلينا آثار الآشوريين رسوماً تمثل مواكب الملوك سائرة و آلات الطرب تتقدمها ، و حدثنا مؤرخوهم عن الموسيقى فقالوا إنها عنوان المجد فى الحفلات و رمز السعادة فى الأعياد . أجل ، فالسعادة بدونها تحكى فتاة

قطع لسانها . فالموسيقى لسان جميع أمم الأرض ، سبّحت معبوداتها بالأناشيد و مجّدتها بالألحان ، و كانت التراتيل - و هى الآن - فرض كالصلاة يقدمونها فى المعابد و كمحرقات يقفونها على القوة المعبودة . محرقات مقدسة مبدأها عواطف النفس . صلوات يهذبها القلب و ما أكملته اهتزازات المشاعر . أنفاس حرّة ما زلفتها الألفاظ بل تظرفت بها أنفاس أثارتها ندامة الملك داود فملأت أناشيده أرض فلسطين و ابتدعت أشجانه أنغاماً شجية مؤثرة منبعها انفعالات التوبة و حزن النفس . و كوسيط قامت مزاميره ، بينه و بين الله ، تطلب له مغفرة زلاته ، و كأن رنات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق و سرت مع قطرات دمه إلى أصابعه ، فكانت أعمال تلك الأصابع عظيمة عند الله و الناس . و هو القائل : " هلـّلوا للرب ، سبّحوا الرب بصوق البوق ، سبّحوه بالمزامير و القيثارة ، سبّحوه بالطبل و الدفوف ، سبّحوه بالأوتار و الأرغن ، سبّحوه بصوت الصنوج ، سبّحوه بصنوج التهليل و كلّ نسمة فلتسبّح الرب " . و جاء فى الأسفار أن ملائكة من السماء تأتى ، فى آخر الدهر ، نافخة الأبواق فى جميع أقطار العالم فتستفيق من صوتها الأرواح و تلبس أجسامها و تنشر أمام الديـّان . لقد عظـّم كاتب هذا السفر الموسيقى إذ أنزلها منزلة رسول من الله إلى أرواح البشر ، و ما قول الكاتب إلا صورة مشاعره و على نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريه .

و جاء ، فى بدء مأساة ابن البشر ، أن التلامذة سبّحوا قبيل ذهابهم إلى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم . و كأنى الآن أسمع نغم تلك التسبيحة صادراً من أعماق نفوس حزينة رأت ما سيحلّ برسول السلام فتنفست عن نغمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع .

***

تسير الموسيقى ، أمام العساكر ، إلى الحرب فتجدد عزيمة حميتهم و تقويهم على الكفاح ، و كالجاذبية تجمع شتاتهم و تؤلف منهم صفوفاً لا تتفرق . ما سارت الشعراء ، أمام الكتائب ، إلى ساحات القتال ، موطن المنية . لا و لا الخطباء ، ما رافقتهم الأقلام و الكتب ، بل مشت أمامهم الموسيقى كقائد عظيم ، يبث بأجسامهم الواهنة قوة تفوق الوصف ، و حمية تنبه فى قلوبهم حب الانتصار فيغالبون الجوع و العطش و تعب المسير ، و يدافعون بكل ما فى أجسادهم من القوة ، و وراءها يسيرون بفرح و طرب و يتبعون الموت إلى أرض العدو المبغوضة . كذا يستخدم ابن آدم أقدس ما فى الكون لتعميم شرور الكون .

الموسيقى رفيقة الراعى فى وحدته ، وهو إن جلس على صخرة في وسْط قطيعه نفخ بشبَّابته ألحاناً تعرفها نعاجه فترعى الأعشاب آمنةً. والشبَّابة عند الراعي كصديق عزيز لا تفارق وسطه، ونديم محبوب، تستبدل سكينة الأودية الرّهيبة برياض مأهولة، وتقتل بأنغامها الشجيَّة وحشتها، وتملأ الهواء أنساً وحلاوة.

الموسيقى تقود أظعان المسافرين وتخفّف تأثير التّعب وتقصّر مديد الطّرقات. فالعِيْس لا تسير في البيداء إلا إذا سمعتْ صوت الحادي. والقافلة لا تقوم بثقيل الأحمال إلا إذا كانت الأجراس معلّقة برقابها. ولا بدع، فالعقلاء في أيامنا هذه يربُّون الضَّواري بالألحان ويدجِّنونها بأصوات عذبة.

***

الموسيقى ترافق أرواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة، تشاطرنا الأرزاء والأفراح وتساهمنا السّرَّاء والضّرَّاء. وتقوم كالشَّاهد في أيام مسرّتنا وكقريبٍ شفيقٍ في أيام شقائنا.

يأتي المولود من عالم الغيب إلى دنيانا فتقابله القابلة والأقارب بأغاني الفرح، متأهّلين بأناشيد الابتهاج والحبور. يحييهم عندما يرى النّور، بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتّهليل والهتاف كأنهم يسابقون بالموسيقى الزّمان على إفهامه الحكمة الإلهية.

وإذا ما بكى الرّضيع اقتربت منه والدتُه وغنّتْ بصوتها الموسيقي المملوء رقَّة وحنوَّاً فيكفُّ عن البكاء ويرتاح لألحان أمِّه المتجسِّمة من الشّفقة وينام. وفي ألحان الوالدة ونغمتها قوَّة توعز إلى الكرى ليُغمضَ أجفان طفلها. وتشارك تلك الألحان السّكينة بهدوئها فتزيدها حلاوة وتمحو رهبتها وتملأها سحراً من أنفاس الأم الحنون حتى يتغلَّب الرّضيع على الأرق وينام وتطير نفسه إلى عالم الأرواح. ولا ينام الطّفل لو تكلّمت الوالدة بلسان شيشرون أو قرأت ابن الفارض.

ينتقي الرّجل شريكة حياته وتتّحد نفساهما برباط الزواج، متمِّمين وصيَّة كتبتها الحكمة منذ البدء على قلبَيْهما، فيجتمع الأقارب والخلاّن ويصدحون بالأناشيد والأهازيج ويقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط القران عرسَ المحبَّة، فكأني بها ، يوم التَّعريس ، صوتٌ رهيبٌ تمازجه الحلاوة، صوتٌ يمجِّد الله في مخلوقاته، صوتٌ ينبِّه الحياة النَّائمة لتسير وتنتشر وتملأ وجه الأرض.

وعندما يأتي الموت، ويمثل آخر مشهدٍ من رواية الحياة نسمع الموسيقى المُحزنة ونراها تملأ الجو بأشباح الأسى، في تلك السَاعة الموجعة إذ تودّع النّفس ساحل هذا العالم الجميل وتسبح في بحر الأبدية، تاركة هيكلها الهيوليَّ بين أيدي الملحّنين والنَّدَّابين، فيتأوَّهون بنغمات الحزن والأسف ويلحفون تلك المادّة الثَّرى ويشيّعونها في ألحان مفادها الضَّيم وأناشيد معناها الكمد واللَّوعة. نغمات يحيونها ما بقي التّراب فوق التّراب وإن بليت يبقى صداها في خلايا الجوارح ما دام القلب يذكر مَن مضى.

***

جالستُ مَن ميَّزه الله بعزوبة الصَّوت وحباه إدراكَ فلسفة التّنغيم والإيقاع فرأيتُ السامعين حوله مصغين صاغرين، ماسكين أنفاسهم، محكومين بفواعل السكينة، شاخصين إليه كالشّعراء المستسلمين لقوَّة فعَّالة، توحي إليهم أسراراً غريبة، حتى إذا ما انتهى الملحِّن من إنشاده تنهَّدوا ذاك التَّنهُّد الطّويل ــ آهٍ !! ــ آه !! صادرةً من أفئدة هيَّجتْ فيها الألحان عواطف مكنونةً فلذَّ لها التَّأوُّه. آه تتنفسها قلوبٌ حرَّى أنعشتْها الذّكرى. آه كلمة صغيرة لكنَّها حديثٌ طويل. آه !! ما قالها سامعٌ كلامَ الملحِّن لا ولا ناظرُ وجهه . بل تنهَّدها مَن أعار أذناً لنشيد نُسجَ مِن مقاطعَ أنفاسٍ متقطّعة. أنفاس حيّة مثَّلتْ له فصلاً من رواية حياته الماضية أو فشتْ سرّاً أكنَّتْه أضلعُه.

وكم تأمَّلتُ وجه سامع حسَّاس فرأيت ملامحه تنقبض تارة وتنبسط طوراً وتنقلب مع تقلُّبات النّغم. واهتدَيْتُ بخَلْقه إلى خُلقه واستحكيتُ باطنه بواسطة ظاهره.

والموسيقى كالشّعر والتّصوير، تمثِّل حالات الإنسان المختلفة وترسم أشباح أطوار القلب وتوضِّح أخيلة ميول النَّفس وتصوغ ما يجول في الخاطر وتصف أجمل مشتهيات الجسد.

النَّهاوَنْد

(النّهاونْد) يمثِّل تفريق المحبِّين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة مِن راحلٍ عزيز. يمثِّل شكْوى آلامٍ مبْرحة بين ضلوع قوامها لظى الشّوق. النّهاوند صوت من أعماق النَّفْس الحزينة. نغمٌ متجسِّمٌ مِن مهجور يسأل عطفاً على

رمقه قبل أن يضنيه البُعاد. زفرات يائسٍ أنشأتْها المرارة وتنهُّداتُ قانطٍ بثَّتْها لوعةُ مَنْ أتْلفه الصَّبْر والتَّجَلُّد. النَّهاوند يمثِّل الخريف وتساقط أوراق الأشجار المصفرَّة بسكينةٍ وهدوء، وتلاعب الرّيح بها وتفريق شملها. النَّهاوند صلاة والدةٍ نأى ابنها إلى أرضٍ بعيدة فباتت بعده تغالب النوى فيهاجمها بعوامل اليأس وتصدُّه بفواعل الصبر والأمل. وفي النَّهَاوند معنى بل معانٍ وأسْرار يفهمها القلب وتفقهها النَّفْس. أسرار يحاول بثَّها الّلسان وكشفها القلم فيجفُّ هذا وتنقطع أوصال ذاك.

الأصْفهان

وأصغيتُ (للأصفهان) فشاهدتُ، بعين سمعي، آخر فصل من حكاية عاشق دنف، مات حبيبه فتقطّعتْ عُرى آماله وتواصلتْ زفراته فهو ينوح بآخر ما في جسده من الحياة، ويرثي ببقايا ما في حياته من الرمق. الأصفهان آخر نَفَسٍ من مُنازع واقف، في مركب الموت، بين شاطىء الحياة وبحر الأبديَّة. الأصفهان رثاء الذّات بغصَّاتٍ متقطّعة متواصلة وتنهُّداتٍ عميقة. نغمةٌ صداها سكينةٌ تُمازجها مرارةُ الموت والأسى وحلاوة الدّمع والوفاء.

وإن كان النّهاوند حنين مَن يحيا ببعض الأمل ، فالأصفهان أنين مَن انفصمتْ عُرى آماله.

الصَّبا

نسمع (الصِّبا) فتستفيق منَّا قلوبٌ حجبتْها لُحُف الغيم وتستيقظ وترقص بين الضُّلوع. فالصَّبا نغمة فرح تُنْسي المرء أتراحه فيطلب الراح ويشرب بلذَّة غريبة ويستزيد منها كأنَّه يعلم أنَّ خمرة المَسَرَّة تسابقها فتحكم بالعاقلة. الصَّبا حديث مُحبٍّ مغْتبطٍ صارع الدَّهر وأرغم أنف البين وأسعدته اللّيالي بخلْوةٍ فحظيَ بلقاء محبوبة جميلة في حقل بعيد، فأولاه اللقاء فرحاً وابتهاجاً. الصَّبا كنُسَيْمات الصَّبا تمرُّ فتهتزُّ لها أزاهر الحقل تيهاً وابتهاجاً.

الرَّصْد

و(للرَّصْد) في سكينة اللَّيل، وقعٌ في المشاعر يحاكي تأثير كلماتٍ رسالةٍ جاءتْ من عزيزٍ غالٍ، انقطعتْ أخباره في بلادٍ بعيدة، فجاء الكتاب يحيي عاطفة الأمل ويعدُ النَّفس باللقاء. وكأنّي بمغني الرَّصْد يخبِّر بقرب الفجر واندحار الظلام، وقد قيل: "إن جَهُزَ ليلُكَ فارصُدْ " .

وفي العتابا البعلبكية عتاب رقيقٌ يراوح بين اللَّوم والتّعنيف، ولحنها مزيجٌ من النّهاوند المؤثِّر والصّبا المُفْرح وفعلها في النَّفس فعلهما.

***

والآن، وقد كتبتُ هذه الصَّفحات، أراني كطفلٍ ينسخ كلمةً من نشيدٍ طويل، غنَّتْه الملائكة عندما جَبَلَ الله الإنسان الأوّل، أو كأمِّيٍّ يستظهر جملةً من كتاب وضعتْه الحكمة على صفحات المشاعر قُبَيل ابتداء الدَّهْر.

فيا أيَّتُها الموسيقى، يا أوتْربي (1) المقدّسة، لقد رقَّصْتِ أخَواتِك الفنونَ فيما غبَر من الأجيال زمناً، ووُضِعْن في معاقل النسيان آخرَ، وأنتِ تهْزئين بهنَّ و لم تتنازلي عن مسرح النَّفس يوماً واحداً، فكأنكِ صدى القبلة الأولى التي وضعها آدمُ على شفتَي حوَّاء. صدىً له صدىً له صدى، تتناقل وتتناسخ وتكتنف الكلَّ وتحيا بالكل، يلذّ لعمّالها عملُهم ويفرح الغير الموهوب مِن مكارمها بسمْعه.

يا ابنةِ النَّفْس والمحبَّة . يا إناءَ مرارةِ الغرام وحلاوته. يا أخيلةِ القلب البشري. يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح. يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة. يا لسانَ المُحبِّين ومذيعةَ أسرار العاشقين. يا صائغة الدُّموع من العواطف المكنونة. يا موحية الشِّعر ومنظِّمة عقود الأوزان. يا موحِّدة الأفكار من نُتَف الكلام ومؤلِّفة المشاعر من مؤثِّرات الجمال. يا خمرةَ القُلوبِ الرَّافعة شاربَها إلى أعالي عالم الأخيلة. يا مُشجِّعة الجنود ومُطهِّرة نفوس العابدين. يا أيَّتُها التَّموُّجاتُ الأثيريةُ الحاملةُ أشباحَ النَّفس ويا بحرَ الرِّقَّة واللُّطْف ، إلى أمواجِكِ نسلِّم أنفسَنا وفي أعماقِكِ نستودِع قلوبَنا، فاحمليها إلى ما وراء المادَّة وأرينا ما تكنُّه عوالمُ الغيب.

تكاثري يا عواطفَ النُّفوس وتعاظمي يا مشاعرَ القلوب وارْفعي أياديَ ذوي الأيادي لبناء الهياكل لهذه الآلهة العظيمة، وانزلْ يا ملاك الوحي على قلوب الشُّعراء واسْكبْ في خلايا قريحتهم مديحاً وتسبيحاً لهذه العظيمة المقدَّسة. واكْبري يا مخيِّلة الرَّسَّامين والنَّقَّاشين وابتدعي لها صوراً وأشباحا.

كرِّموا يا سكَّانَ الأرض كهنتَها و كاهناتها وعيِّدوا لذكر خدَّامها وشيِّدوا لهم التَّماثيلَ. صلِّي أيتها الأمم وسلِّمي على أورفْيوس وداود والموصلي وعظِّمي ذكرى بيتهوفن وفاغنر وموزارت. وغنِّي يا سوريا باسم شاكر الحلبي ، و يا مصرَ باسم عبده الحمولي. كبِّر أيها الكون الألى بثّـوا في سمائكَ أنفسَهم و ملأوا الهواء أرواحاً لطيفةً وعلّموا الإنسان أن يرى بسمْعه ويسمعَ بقلبه. آمين.

---

(1) أوتربي : عروس آلهة الموسيقى عند قدماء اليونان